بين العلم والفلسفة

وهل ضعف الايمان بالعلم ؟

للدكتور محمد حسين هيكل بك

ليس الدكتور هيكل بك ، بالمجهول لدى القراء فنعرفه ، ولا بالخامل الذكر بين العلماء فنقدمه وانه لمن المبالغة أن نقدم رجلا كهيكل قامت عليه مبادئ كل الادب القومى الحديث ، وكان له القدح المعلى فى إذكاء الروح القومى ، وأكبر الاثر فى تقدم الصحافة المصرية .

ومن ذا الذى لم تثقفه كتابات هيكل ، أو تقومه رسائله الادبية الرائعة ؟

وفى الحق أنه لمن الظلم ، أن نحكم عليه من رسائل منفردة ، ولكن الحق كل الحق أن ننظر إلى مجموع كتاباته المتنوعة فى مختلف العلوم والفنون والسياسة والادب والاجتماع ، لنعرف أنه فى طليعة العلماء والمفكرين ، وعلى رأس الادباء المبرزين ، وفى الذروة من قمة الكتاب المعروفين .

وحسب القراء ، أن يعرفوا ، أن « هيكل » عماد الحركة الادبية ودعامتها القوية لا فى مصر فحسب بل وفى [illegible] الشرق .

وقد تشرفت بزيارته راجياً التفضل بكتابة بحث من بحوثه القيمة فخصنا بهذا البحث القيم الذى يراه القراء بعد .

المحرر

يقولون إن الديمقراطية والنظم الحرة التى قامت على أساسها ، تعانى اليوم أزمة مظهرها قيام الطغاة والحكام بأمرهم فى اكثر من أمة مستقلة . ويعلل البعض هذه الظاهرة بأنها بعض آثار الحرب ، وخضوع الدول والشعوب للقوة الغاشمة ، قوة البواتر والمفرقعات والغازات الخانقة وما اليها من عدة الهلاك والدمار . فاذا كانت الشعوب يخضع بعضها للبعض عن طريق هذه القوة المدمرة ، فهذه القوة يمكن أن تتخذ هى الأخرى أداة لاخضاع شعب بأسره لنظام معين ولحكم فرد من الأفراد مادام هذا الفرد يصرف القوة

المدمرة ، ويستطيع بذلك أن يخضع غيره لما يعتقده هو خير ذلك الغير ولو على كره منه وبارغام إرادته وإذلال أنفته .

هل يعانى العلم اليوم أزمة كالأزمة التى تعانيها النظم الحرة ؟ ؟ يجيب الأكثرون على هذا السؤال ايجاباً ويحاولون أن يردوا سبب الأزمة إلى الحرب الأخيرة وآثارها . فهم يقولون : إن العلم حاول خلال القرن التاسع عشر كله ، وخلال النصف الأخير منه بنوع خاص ، أن يحل كل مشاكل العالم العقلية والنفسية حلا يقيمه على طرائق من الملاحظة والتجربة والمقارنة ، وانه نجح فى ذلك الى حـد كبير ، فلما جاءت الحرب الكبرى واشتركت فيها الأمم بمختلف طبقاتها ، وعانت هذه الطبقات من كوارث الحرب ومصائبها ما عانت ، قصر العلم عن أن يمدها بالسند الروحى أو النفسى الذى يرتفع بها فوق كوارثها ومصائبها ، فلم يك بد من الالتجاء إلى وحى الالهام والعاطفة مما لا يقره العلم ، ومن الرجعة الى الدين ، وإلى السند الروحى منه بنوع خاص ، لتستطيع الانسانية أن تواجه ما أناخت الحرب به عليها من أرزائها . ومن ثم يعانى العلم أزمة كالتى تعانيها الحرية ، ومن ثم يلتمس الناس فى غير طرائق العلم سنداً للنفوس ، ومقياساً للخلق ، وأداة لجدة روحية ترتفع بالعالم من التمرغ فى وهدة المادة التى دفعت الحرب به اليها ، والتى جعلته يلتمس فى إرضاء الشهوات الدنيا وسائل لنسيان همومه بعد أن كان يواجهها بعواطف سامية من الصبر والجلد ويحملها فى سكون وطمأنينة ، لأنه كان يجد فى الايمان درعا قويا يغالبها به ويتغلب عليها .

ولئن صح ان كانت الديمقراطية ، والنظم الحرة تعـانى أزمة سببها الحرب ، فان اعتبار الحرب سبب ما يمكن أن يدعى أزمة العلم فيه شىء كثير من التجوز ، يجعل تجوزاً كذلك اعتبار التطورات الفكرية الأخيرة أزمة عامية . والواقع أن ما يمكن أن يعتبر سبب هذه الأزمة يرجع الى ما قبل الحرب بسنوات عدة . فمنذ فكر المستر ستد صاحب مجلة المجلات الانكليزية فى مخاطبة الأرواح ، ومنـذ تابعه فى هذا التفكير كونان دويل ، وأوليفر لودج وغيرهم من العلماء المشهود لهم بالنزاهة والفضل ــ من ذلك التاريخ ومن قبل ذلك التاريخ ، بدأ اضطراب الايمان المطلق باستطاعة العلم الوصول الى الحقائق جميعاً ، وبدأ كثيرون من العلماء يجعلون ميدان العلم غير ميدان الفلسفة ، ويقررون بصراحة أن ميدان العلم بالغاً ما بلغ امتداده ، لن ينال من ميدان الفلسفة والايمان إلا مقادير قد تبدو لنا

عظيمة وهى في الواقع ضئيلة كضآلة كوكبنا الأرضى الى جانب الكواكب الأخرى ، والى جانب لا نهائية الوجود .

وقبل أن نعرض لهذا الذى يسمى تجوزاً أزمة العلم ، يحسن بنا أن نقف قليلا لنفكر فى منشأ هذه الأزمة . فمنذ ظهرت الفلسفة الواقعية (أو الوضعية كما يجرى به الاصطلاح) رأى مؤسس هذه الفلسفة : أوجست كومت : ورأى عماداها العظيمان تين ورينان أن العلم سيحل مشاكل العالم جميعاً ، ومن بينها المشكلة الدينية ، أو بعبارة أدق مشكلة الايمان . وأن التسليم بقواعد ونظريات لا تؤيدها الطرائق العلمية المستندة إلى التجربة والملاحظة والمقارنة يجب أن يتلاشى ليحل محله إيمان أساسه هذه القواعد العلمية التى تكشف لنا — بطريقة لا تتطرق الريبة اليها — عن سنن الكون وقواعد العالم وما حسبه المدنيون والفلاسفة (المتافيزكيون) مما لا يخضع للعلم ولا للحس وما يجب أن يرجع الى الوحى السماوى أو الالهام النفسى . وهذا الايمان بالعلم هو الذى جعل أوجست كومت يقرر ما سماه قانون الحالات الثلاث : الحالة اللاهوتية (الثيولوجية) والحالة التجريدية (المتافيزكية) والحالة الواقعية (العلمية) ، ويعتبر هذه الحالة الأخيرة مدى ما يمكن أن يصل الى العقل الانسانى وما يستطيع معه أن يحل كل مشاكل العالم ومعضلاته . وقد بالغ أصحاب كومت والتابعون اياه فى الايمان بالعلم وبما يحل العلم من مشاكل الحياة حتى خيل الى البعض أن ميادين الدين والفلسفة توشك أن تسلم نفسها لميدان العلم وتصبح بعض هذه الأساطير التى أورثنا اياها التاريخ ، ليتلهى بها الكتاب والشعراء ورجال الفن على علم بأنها أساطير لا يمكن أن تكون موضعاً لايمان رجل مثقف .

والواقع أن العلم تقدم ، وما يزال يتقدم حتى اليوم ، ويحل من المشاكل ما كان يظن الى ماض قريب مستحيل الخضوع لحكم التجربة والملاحظة والمنطق العلمى . بل إن خطى العلم قد بلغت من السرعة فى هذه السنين الأخيرة ما أدهش الاذهان التى كانت فى ريبة من استطاعة العلم أن يكشف من طوائف المجهول عن كل هذا المقدار . وكما كنا نجد فى الماضى مؤمنين يلذهم أن يضحوا فى سبيل ايمانهم براحتهم وبحياتهم ، فان كثيرين من العلماء ، يتعرضون اليوم فى سبيل العلم لصور من التضحية يتضاءل أمامها كل ما عرف من التضحيات فى كل العصور التى سبقت هـذا العصر . ولسنا بحاجة فى هذا السبيل الى أن

نذكر مثل العالم البلجيكى بيكار الذى اخترق طباق الجو الى ارتفاع خمسة عشر كيلومتراً عن سطح البحر ليقوم بالملاحظات ويدون الظواهر الجوية عنـد هذا البعد من أرضنا حيث لاتستطاع الحياة الانسانية — لسنا بحاجة الى ذكر هذا المثل والأمثال من نوعه فى السنين الأخيرة كثير . وكثير من أمثال هذه التضحيات للعلم يتم فى سكون ومن غير جلبة ، لأنه يتم فى اكثر الأحيان فى معمل من المعامل وبين جدرانه التى لا يعرف العالم عما يتم بينها الا ما يظهر من نتائجه — بينما تظل الجهود الضخمة التى ينفقها العلمـاء والتى يذيبون فيها أذهانهم وعقولهم وأفئدتهم مطوية عن الناس لأن أصحابها يرون كل تضحية فى سبيل العلم أقدس من أن يتباهى صاحبها بها على أنها موضع افتخار أو إعلان . وهذه النتائج التى يكشف العلم كل يوم عنها ، وهـذه الخطى يسبق العلم الانسانية اليها قد كان لها من غير شك أثرها فى حياتنا النفسية وان لم يك بمقدار ما كان لها من أثر فى حياتنا المادية ومعيشتنا الاجتماعية . لكن هذه الخطى لما تبلغ بعد ذلك المدى الذى كان يترقبه كومت وتين ورينان . هى لم تبلغ لتكشف عن حقيقة الوجود وحقيقة الصلة بين الانسان والوجود . وهذا هو مصدر ما يمكن أن يسمى تجوزا أزمة العلم ، وإن كان العلم لايحس قط هـذه الأزمة ، وكان يسير فى سبيله بقدم ثابتة وايمان راسخ وتقدير دقيق للرسالة العظيمة السامية التى يضطلع بها ليصل بالانسانية الى الكمال أو ليقترب بها الى أدنى الغايات من هذا الكمال .

لا يحس العلم بهذه الأزمة لأنه واجه مثلها فى عصور كثيرة . وقد تغلب فى بعض هذه العصور على الشعور العام بقصوره عن حل مشاكل الانسانية ، ووقف فى عصور أخرى مكتوفاً لا يتقدم حتى طغى عليه هذا الشعور بقصوره طغياناً رد الناس إلى الايمان الذى لايستند الى شىء من العلم . ولست أدرى إن كان الشعور بمقدرة العلم على حل معضلات الحياة جميعاً قد بلغ من النفوس فيما مضى ما بلغ فى القرن التاسع عشر فى أوربا . لكن الثابت أن عصور ازدهار الحضارة الاسلامية قد رأت نهضـة علمية عظيمة قرر رجالها طرائق البحث العلمية الحديثة وان لم يعلنوا مبدأ الفصل بين العلم والايمان المستند الى ما سوى العلم . أفترى ما أصاب العلوم الاسلامية من أزمة تقدمت اضمحلالها مصيباً العلم فى هذا العهد الحاضر لتطغى الأوهام على أهله كما طغت على المسلمين ولينتقل العلم

بعد ذلك الى أوطان غير أوطانه اليوم ؟ أم أن نوعاً من المؤازرة والتعاون سيكفل للعلم أن يظل سائراً فى طريقه وأن تتسع دائرة أوطانه وأن يمد الأيمان بقوة تجعله أسمى نظرة وأجمل تسامحاً وأجدى عوناً فى تقريب الانسانية من غايتها ؟

ليس يسيراً أن ندلى بجواب صريح أو أن نختار إحدى هاتين الخطتين . لكن الذى نلاحظه أن ثمة اليوم بين العلم والفلسفة تنافساً صريحاً ، فأيهما أقدر على حل لغز الوجود والكشف عن حقيقته وحقيقة الصلة بين الانسان وبينه ؟ فالعلماء الواقعيون يعلنون من جانبهم أن أبحاثهم تدنو بهم من هذه الغاية على مهل ولكن بقدم ثابتة وبالوسائل العلمية التى لا يتطرق اليها الريب . أما الفلاسفة « الألهاميون » فيذهبون الى أن العلم على جلال ما كشف عنه وما أضاء به سبيل الفلسفة لن يصل الى كنه الحقيقة التى يتعلق إيمان القلب بها ، وأن هذه الحقيقة سيظل أبداً مصدرها الألهام وأنها فى وحدتها قد تتخذ صوراً وألواناً مختلفة بمقدار ما يفسح العلم أمام إلهامنا من فرجات للبصيرة ، لكن الألهام سيظل آخر الأمر مرجع الأيمان الذى يهذب نفسيتنا وينظم تبعاً لها طرائق معيشتنا وسياستنا ويصور من هذا الكل الخاضع لأيماننا حياة الفرد وحياة الجماعة وحياة الانسانية ويقرر صلات الفرد والجماعة والانسانية جميعاً بعضاً ببعض ، وبعضها بالكون الأعظم أو بمبدع الكون الأعظم على النحو الذى يهدى اليه الالهام المستمد من الكون الأعظم ومبدعه

على أن السابقين من أصحاب هذه الفلسفة يستمد إلهامهم وحيه من العلم ونتائجه ونظرياته . وليس واحد منهم الا من درس العلم دراسته دقيقة ووصل بين نتائجه ومنطق العقل ووحى البصيرة . وهذا برجسون ، أشد أصحاب هذه الفلسفة منذ أوائل هذا القرن بروزاً ، ممن يفاخر بهم العلم الحديث . ووليم جيمس الفيلسوف الأمريكى الذى جعل من دراسة النفس الانسانية ميدانه والذى يأخذ بمذهب الالهام على نحو مايأخذ به برجسون وإن اتجه بأبحاثه الى غير وجهته هو الآخر عالم ضليع بالعلم الحديث وبما أبدع . وطائفة غير هذين من فلاسفة الالهام يعتبرون جميعاً فى عالم العلم أعلام هدى يحج اللباب ويحج العلماء أنفسهم اليهم . وليس فى ذلك من عجب وطائفة من الفلاسفة الواقعيين يقررون أن للايمان ميداناً غير ميدان العلم وإن كانوا يرون ميدان الايمان عقيما غير ذى ، جدوى فغير

جدير بالنفس المهذبة أن تتجه اليه . وأصحاب نظرية الالهام فى حل بطبيعة الحال من مخالفة الواقعيين رأيهم فى شأن ميدان الايمان وفى حل من اعتباره أسمى الميادين التى يجب أن يعد العلم لها ، وفى أنه الميدان الذى يجب أن تجعله النفس المهذبة وجهتها وفى أن تصل منه الى أسمى غاياته . واقرار الواقعيين بهذا الميدان ووجوده حجة لمعارضيهم وتبرير صريح لبحثهم فيه ابتغاء بلوغ عليا مراتبه . وان كثيرين من هؤلاء المعارضين ليذكرون هربرت سبنسر وما قدم به للجزء الأول من فلسفته التوفيقية — جزء المبادىء الأولى — حين تحدث عن مالا سبيل الى معرفته (The unknowable) وليعترضون عليه بأن ما يحسب هو ألا سبيل الى معرفته قد يتمكن غيره من الوصول الى معرفته اذا سلكوا طريقاً غير طريقه ولم يتقيدوا تقيداً مطلقاً بالملاحظة والتجربة والاستقراء ، وجعلوا الالهام حاسة كالنظر أو السمع يستطيع أن يسجل ما تسجله هذه الحواس من ملاحظات وتجارب يبنى العقل وتبنى البصيرة على أساسهما نتائج الاستقراء التى يصلان اليها

أى هذين التيارين ينتهى الى الانتصار ؟ أم هما يظلان متوازيين متعاونين ؟ وهل هذه الظاهرة التى يحلو لبعضهم أن يسميها أزمة العلم ستتمخض عن انتصار نظريات الايمان انتصاراً يقلل من سرعة تيار العلم ويباعد بين خطواته ؟ واذا كان ذلك فهل له غاية ينتهى اليها ؟ هذه كلها مسائل جديرة بالبحث ، نود لو تناولها مفكرونا ورجال الجامعة فى مقدمتهم . وبحثها يكشف فى اعتقادنا عن ميادين للنظر والتفكير جديدة ، جديرة بكل اعتبار وعناية ؟

محمد حسين هيكل

تحذير ورجاء

نرجو حضرات الكتاب والأدباء والعلماء وجميع الذين يتفضلون على مجلتنا بأبحاثهم أن يتأكدوا من كل شخص يتقدم الى حضراتهم مدعياً تمثيل المجلة لأخذ موضوع أو حديث أو غيره منهم . فقد أبلغنا بعض حضراتهم عن أشخاص من هذا القبيل ، تقدموا إليهم بتلك الدعوى الكاذبة وليست لنا بهم علاقة مطلقا ؟ المحرر